

الحديقة المزخرفة في حواشي القهوة المرتشفة

لمحمد بن عبد الرحمن الديسي

(1270-1339هـ/1854-1921م)

إعداد الأستاذ: عادل لخضر

كلية الأدب والعلوم الاجتماعية

جامعة سعد دحلب البليدة

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله والرضا
على صحابته أجمعين.

أما بعد،

فإنه من يطلع على كتب تاريخ المغرب الإسلامي وكتب الطبقات والتراجم
كعنوان الدراية للغبريني (ت 70هـ)، أو وفيات ابن قنفذ (810هـ)، أو البستان
لابن مريم المليلتي (1014هـ) أو تعريف الخلف للحفناوي (ت بعد 1936م)
ليعلم كم كانت الجزائر عامرة بدور العلم المختلفة ما بين كتاتيب ومدارس
وجوامع في المدن والحوضر الكبرى والقرى، والزوايا المنتشرة في البوادي وفي
رؤوس الجبال، وكانت تنافس مدارس المشرق والأندلس سمعة وعطاء علميا،
وأكثر من ذلك كانت مقصد طلاب العلم والعلماء على حدّ سواء، ولاسيما في
فترات قوة الدول التي كانت تحكم المغرب العربي وازدهارها كبجاية وتلمسان
وبلاد زواوة وغيرها كثير.

وكان يقوم على هذه المؤسسات العلمية علماء بلغت شهرتهم وحسن صيتهم الشرق ومؤلفاتهم لاقت القبول عند العام والخاص، وتنافس الأمراء والحكام في الاهتمام بالعلم والعلماء فقرّبوهم منهم وأجزلوا لهم العطاء، فجاء إنتاجهم العلمي وافرا ومتنوعا شمل علوم الدين والدنيا.

ثم يدرك بعد ذلك سرّ عظمة هذه الأمة بما أنجبته من علماء عظام ساهموا بقسط وافر في ترقية الحضارة الإنسانية؛ بما قدموه من جهود علمية تدريساً وتأليفاً في شتى مجالات العلم، علماء من أمثال: الغبريني وابن مرزوق الجدد والحفيد وابن قنفذ، والسنوسي صاحب العقائد، وابني الإمام الشريف التلمساني والونشريسي، والمقرّي والثعالبي والمغيلي والشاوي، وقدورة وابن عمار والبوني، وأبي راس المعسكري، وعبد القادر المجاوي وعبد الرحمن الديسي وغيرهم كثير لا يسعنا المقام لذكرهم وذكر مآثرهم العلمية.

فعلى قدر ما يأخذنا الإعجاب بهم والإعظام لهم والتقدير لأعمالهم العلمية يأخذنا الأسى على الغفلة أو التغافل عن التراث العلمي الكبير الذي خلفوه لنا، وعلى تركه عرضة للضياع وقد أخذ منهم كل جهودهم وحياتهم، فلولا جهود بعض الأساتذة الذين انبروا للقيام بمهمة إخراج هذا التراث إلى النور وبعث الحياة فيه من جديد، ثم صونه وتقديمه لطلاب العلم، وأعظم بها من مهمة فقد حفظوا ما استطاعوا من درر علمية نفيسة، ولكن تبقى جهودهم غير كافية بالنظر لضخامة هذا التراث ما لم نحمل نحن المتخصصين اليوم في تحقيق المخطوطات معهم وعنهم ثقل هذه المهمة، مستفيدين من خبراتهم التي حصلوها بعد سنوات من الجهد المضني في سبيل تحقيق وإخراج بعضها.

وفي هذا الإطار وتكملة للمسار الذي سلكته من أجل تحضير شهادة الماجستير في هذا التخصص، وبعد أن نقّبت عن بعض هذه الكنوز المخبوءة في بطون المتون والفهارس، وجهني - مشكورا - أحد الأساتذة المهتمين بإحياء التراث إلى درة نفيسة، هي من أنفس الدرر التي ورثتها فخر الجزائر⁽¹⁾ ومعلّم زاوية الهامل ببوسعادة الأول وإمامها في الربع الأخير من القرن التاسع عشر والعقدين الأولين من القرن العشرين ميلادي؛ الشيخ محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن الديسي (1270-1335هـ/ 1854-1921م)⁽²⁾، الذي لم يسافر كثيرا في طلب العلم - كعادة طلبة العلم في ذلك الوقت - ولم يأخذ عن كثير من المشايخ فقد أخذ عن الشيخ ابن بلقاسم بن بروس والشيخ محمد الصديق في قرية القرآن وعلوم العربية، ثم انتسب إلى زاوية سيدي السعيد بن أبي داود في جبل زاوية فأخذ عن شيخها محمد الطيب، ثم أخذ عن شيخ محمد بن أبي القاسم شيخ زاوية الهامل التصوف لما انتسب إليها معلّمًا ولكنه مع ذلك حصل علوما جمّة تنوعت بين علوم اللغة والأدب كالنحو والصرف والبلاغة لشعر والرسائل والألغاز والمناظرات، وعلوم القرآن والعقيدة والفقه وأصوله، علوم الحديث والتصوف والمنطق والذي يبعث على العجب أن بصره كفّ وهو بلي، فهو بحق كما وصفه الكتاني في فهارسه: فخر الجزائر وشمسها و"مجدد رسوم دينية، ومحبي دارس الآثار المصطفية بالمغربين، بل حافظ الخافقين، المشرق نوره شرقيين، بلا مرية ولا مين"⁽³⁾، ولا غرو وقد كان الشيخ ابن باديس يرأسه مستفتيا بعض المسائل⁽⁴⁾.

قضى حياته كلها بزاوية الهامل في خدمة الناس وطلبة العلم معلّمًا وإمامًا ومفتيًا ولما ولا يكاد ينافسه في التأليف في مختلف الفنون منافس إلا الشيخ عبد القادر باوي ولكن الديسي يفوقه في كثرة التأليف، ومع ذلك كله لم يحظ تراثه العلمي راسة والتحقيق اللهم إلا دراستين أكاديميتين حقق فيهما له عملاقان هما المشرب ري على منظومة الشبراوي⁽⁵⁾، والقهوة المرتشفة في شرح منظومته على الجمل هرة المقتطفة⁽⁶⁾، وكلاهما في النحو.

وأما الدرة النفيسة التي وُجّهت إليها - كما أشرت إلى ذلك آنفاً - فهي حاشيته على شرحه "القهوة المرتشفة" لنظمه في الجمل "الزهرة المقتطفة" والتي سماها "الحديقة المزخرفة" وبعد اطلاعي عليها في نسختين تحصلت عليهما من جمعية الديسي بالهامل (بوسعادة) وجدتها بحق حديقة مزخرفة تنوعت فيها الأزهار والرياحين وفاحت بكل شذى وطيب، فهي ليست حاشية كما هو معهود في الحواشي بل لست أغالي إن قلت: إنها أكثر مؤلفاته اللغوية والأدبية فائدة وأغزرها علماً وأكبرها حجماً ففيها النحو والصرف والبلاغة والعروض والأدب والعلوم الشرعية والتصوف وقد فرغ من تأليفها في 17 رمضان 1302هـ.

لهذه الأسباب والدواعي أزمعت على كشف اللثام عن حسننها وعرضها على المهتمين وطلاب العلم محققة ومقدمة بدراسة مستفيضة حول الشيخ وعصره، والزوايا ومساهماتها العلمية والثقافية في حفظ هوية هذه الأمة من عمليات المسخ والسلخ، التي مارسها المستدمر الفرنسي آنذاك، وذلك بتقديمها مشروع دكتوراه في تحقيق المخطوطات.

هذا وقد ظفرت بنسختين من أصل ثلاثة نسخ للكتاب، فالنسخة الأولى وهي جيدة موجودة عند جمعية الديسي بالهامل، وقد يكون مصدرها زاوية الهامل! وهي في: 131 صفحة (وجه وظهر) مؤطرة، بمسطرة: 23 سطر × 12 كلمة، وخطها مغربي جميل أسود، والكلمات المفاتيح ملونة بالأحمر والأخضر والأزرق والأصفر، وفيها التعقيبة، والشرح مكتوب على الهامش، كتبت في حياته بيد الشريف بن الحاج محمد المقراني باش آغا في 23 شوال 1329هـ.

وأما النسخة الثانية فإنها لا تقل عن الأولى جودة، وخطها نسخي جميل وهي موجودة عند جمعية الديسي كالأولى وهي مؤطرة بالأحمر في 117 صفحة بمسطرة: 25 سطر × 10 كلمة، واستعملت فيها الألوان المختلفة، وكتب الشرح على الهامش ولا تعقيبة فيها، وهي منقولة عن النسخة الأولى حرفياً وناسخها مجهول.

وأما النسخة الثالثة فلم تقع بعد في يدي إذ وعدني بها أحد المهتمين بالمخطوطات
هالا أعلم لها وصفا.

وهذه صور لبعض صفحات النسخة الأولى، وقائمة أولية بالمصادر والمراجع المستعملة:



ظهر الورقة الأولى ووجه الورقة الثانية من النسخة الأولى (الأصل)

ظهر الورقة الأخيرة من النسخة الأولى (الأصل)